مفهوم المرحلية في وصايا الرسول(ص)
العسكرية والبعد المكاني والزماني للقيادة

د. حميد سراج جابر الأسدي
جامعة البصرة – كلية التربية / قسم التأريخ

مقدمة:

تعد دراسة الملامح العسكرية في فكر الرسول صلى الله عليه واله من المواضيع الخصبة التي تتنوع في مضامينها كألوان الطيف ، وقد عكست هذه الملامح طبيعة هذا الفكر الضخم الذي شهد به العدو قبل الصديق ، فلا يكاد يختلف اثنان على وجود هذا الفكر لا سيما بعد استقراء المواضيع الكثيرة التي جسدها ، وقد حاول الباحثون في أحيان كثيرة دراسة هذه المواضيع لبيان صورة الرسول كقائد عسكري يقف أمامه التأريخ بكل إجلال واحترام ، إذ درست أغلب المبادئ العسكرية التي جاء بها والتي لم يكن عصره قد شهدها بعد .

واليوم عندما نريد أن ندرس هذا الموضوع نحاول أن نستكمل تلك الصور التي رسمت من قبل ، والموضوع قيد الدراسة هو (مفهوم المرحلية في وصايا الرسول صلى الله عليه واله العسكرية والبعد المكاني والزماني للقيادة) وقد لا يختص الرسول صلى الله عليه واله بالوصايا العسكرية ، وانما هناك الكثير من القادة الذين يوصون جنودهم وقوادهم الذين ينوبون عنهم ، الاّ أن ما يميز وصايا الرسول صلى الله عليه واله هو وجود المرحلية التي سادت فيها ، ومعالجتها لواقع المعركة وظروفها التي تستجد بطريقة أصبح نبيها الرسول صلى الله عليه واله القائد الفعلي على الرغم من غيابه ، والنيابة عنه ، وقد كانت وصاياه العسكرية أشبه ما يكون بدستور شامل أخذ بنظر الاعتبار نوعية العدو الذي سيواجهه الجيش ، وبعد المسافة ، والقدرة على الإمداد ، وما إلى ذلك .ومن هنا ونتيجة لذلك انتفى البعد المكاني والزماني للقيادة المتمثلة بالرسول صلى الله عليه واله عن قواده الذين أرسلهم في مهام عسكرية ، أو عن جيشه بشكل عام حينما كان يوصيه خلال المعارك .

لذلك فهذا البحث هو محاولة بسيطة لدراسة تلك المرحلية التي قصدناها ، واثرها في تعويض الوجود الشخصي للرسول صلى الله عليه واله في المعارك بوجود فكره العسكري بين أيدي القادة والمقاتلين . وبالتالي انتفاء بعد المسافة بين القائد العام للقوات المسلحة وقادة المعارك ، هذا فضلاً عن عنصر الزمن الذي تأثر هو الأخر بهذا الأمر ، فلم يعد البعد الزمني حائلاً بين القادة المسلمين وقيادة الرسول صلى الله عليه واله ، لأن المرحلية في وصايا الرسول صلى الله عليه واله قد شكّلت ما يشبه الدستور كما مَر ، والذي يعالج التحركات العسكرية والمعارك بمختلف ظروفها .

وقد تكونت الدراسة من ثلاثة فصول تناول الأول وصايا مرحلة التعبئة والاستعداد والمراحل الضمنية فيها من استنفار أو حث على الجهاد ، ومسير وسرية وكتمان وغير ذلك ، فيما تناول الفصل الثاني وصايا مرحلة المواجهة وستراتيجية الدفاع والهجوم ، وشمل مرحلة البدء بالقتال ، وتطبيق الخطط العسكرية ، وكيفية معاملة الأعداء فيما بعد .

أما الفصل الثالث فكان مختصاً بوصايا المرحلة الأخيرة ، وهي مرحلة أستحصال النتائج وكيفية التعامل معها ، وشملت مسألة معاملة الأسرى والتعامل مع القتلى ، وكذلك كيفية التعامل مع المنافقين وتعقب العدو .

وفيما يخص المصادر والمراجع فلا شك أن كتاب المغازي للواقدي هو المصدر الرئيس لهذه الدراسة ، لكونه يدرس السرايا والغزوات في عهد الرسول صلى الله عليه واله بكل تفاصيلها تقريباً ، وكتاب السيرة النبوية لأبن هشام والذي أختص بسيرة الرسول صلى الله عليه واله بما فيها الغزوات والسرايا ، فضلاً عن بقية المصادر الأولية ولا سيما كتب الحوليات التي ذكرت أخبار الرسول صلى الله عليه واله .

أما الدراسات الحديثة فكان كتاب الرسول القائد لمحمود شيت خطاب أهمها ، إذ درس قيادة الرسول صلى الله عليه واله للمعارك بشكل عام وبتفصيلات كثيرة ، هذا إلى جانب دراسات أخرى ثبتت في قائمة المصادر والمراجع .

الفصل الأول

الوصية التعبوية واستعدادات المقاتلين

لقد كانت المرحلية التي حكمت وصايا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تفصح وبشكل جلي عن فهم متميز لأبعاد الأنشطة العسكرية ، وتدل على أن هناك مقاصد مدروسة لذلك التتابع الزمني في الوصايا ، لهذا نجد أن وصاياه صلى الله عليه وآله العسكرية قبل المعارك كانت تختلف في توجهها ومنهجها عن الوصايا اللاحقة ، ويمكننا أن نفهم هذا الأمر من خلال دراسة سمات هذه الوصايا في المرحلة التي تسبق المواجهة :

١- امتازت هذه الوصايا بتغلب الطابع العقائدي عليها إذ أن الرسول صلى الله عليه وآله كان يهدف من وراء ذلك أمرين :

الأمر الأول : التذكير بالهدف السامي من وراء المواجهة وهو حماية نشر عقيدة الإسلام وبالتالي نشر الفضيلة والمساواة والروح الإنسانية .

الأمر الثاني : التأكيد على هذا الجانب من أجل رفع الروح المعنوية للمقاتلين حتى يكون إقدامهم على المعركة إقداماً حقيقياً .

٢- تأكيد الرسول صلى الله عليه وآله في وصاياه هذه على جانب الحذر وأخذ الاحتياطات اللازمة في التحركات وفي أعداد المقاتلين ، وما يرافق ذلك .

٣- الحرص على دراسة إمكانيات العدو من حيث العدد والعدة ، وكيفية وصول الإمدادات إليهم (الجانب اللوجستي) فضلاً عن الدراسة الجغرافية للمنطقة .

٤- أن الرسول صلى الله عليه وآله لم يفرق بين المعارك على أساس من أهميتها وعدم أهميتها ، وأنما كان مقياسه ثابتاً في وصايا كل المعارك ، وبمختلف ظروفها.

المبحث الأول : الحث على الجهاد

بعد الحث على الجهاد الصورة أو المرحلة الأولى من مراحل وصايا الرسول صلى الله عليه وآله لمقاتليه ، وهو اللبنة الرئيسة التي بنى عليها وصاياه في المرحلة اللاحقة ، ونستطيع أن نسميها مرحلة الأعداد النفسي وتهيئة الأذهان ، وغالبا" ما كان الحث على الجهاد بشكل خطب طويلة أولا" وموجهة لكافة المقاتلين ثانيا" وكان الرسول صلى الله عليه وآله يحث على الجهاد لرد اعتداء خارجي أو داخلي، أو لإحباط نية اعتداء . ومن هذه الخطب خطبته قبل معركة بدر اذ قال وهو يأمرهم ويحثهم ويرغبهم في الأجر (فاني أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه . فأن الله عظيم شأنه يأمر بالحق ، ويحب الصدق ، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده ، به يذكرون وبه يتفاضلون ، وأنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه أحد ، الاّ ما ابتغى به وجهه ، وأن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به من الغم ، وتدركون به النجاة في الآخرة، فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم فاستحيوا اليوم ان يطلع الله عز وجل على شيء من أمركم يمقتكم عليه فأن الله يقول (لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم)[1] انظروا إلى الذي أمركم به من كتابه ، وأراكم من آياته ، وأمركم بعد ذله فاستمسكوا به برضا ربكم عنكم ، وابلوا ربكم في هذه المواطن أمرا" تستوجبوا الذي وعدكم به من رحمته ومغفرته ، فأن وعده حق ، وقوله صدق ، وعقابه شديد ، وانما أنا وأنتم بالله الحي القيوم ، أليه ألجأنا ظهورنا وبه أعتصمنا ، وعليه توكلنا ، وأليه المصير ، يغفر الله لي ولكم)[2].وقد غلب عنصر التنويع على خطبة الرسول صلى الله عليه وآله هذه ، واراد من ذلك ربط الإسلام كعقيدة بنتيجة المعركة . فهو بذلك يزيد من حماسهم في الدفاع عن كيانهم الناشئ ، فلم تختص خطبة بدر بالتوجيهات العسكرية ، وانما تنوعت بمضمونها الى الأمور التالية :

١- تذكير المسلمين بما حثهم الله عليه ، وما نهاهم عنه .

٢- تنزيه الله تعالى وتذكيرهم بعظيم شأنه وأنه أهلا" للعبادة .

٣- تنبيههم إلى منزل الحق الذي هم فيه ، أي منزل قتال المشركين ، وما فيه من عمل يقود إلى الجنة .

٤- التأكيد على الصبر في المعارك وأثره في تحقيق النصر ومن ثم إلى رفعة الإسلام والنجاة في الآخرة .

ونفس الخطوط العامة لخطبة الرسول صلى الله عليه وآله يوم بدر نجدها في خطبته يوم أحد حيث قال (يا أيها الناس أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه من العمل بطاعته والتناهي عن محارمه ، ثم أنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذي عليه ، ثم وطن نفسه لها على الصبر واليقين والجد والنشاط .....)[3] .والأمر اللافت للنظر في هذه الخطبة هو تأكيد الرسول صلى الله عليه وآله على الصبر في القتال ، لا سيما وأنه يقول في موضع آخر من هذه الخطبة (افتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ، وألتمسوا بذلك ما وعدكم الله)[4]. ولا غرابة في هذا الموضوع فالرسول صلى الله عليه وآله يوم أحد قد رأى بوادر ما كان يخشاه من التهاون في أطاعة أوامره منذ مشاوراته لاصحابه في الخروج أو البقاء في المدينة ، لذلك أكد على ضرورة الصبر في هذا الوطن .

المبحث الثاني : المسير

لقد حرص الرسول صلى الله عليه وآله على أخذ كافة الاحتياطات التي تضمن سلامة مقاتليه في مسيرهم لاداء المهام ، لذلك فقد كانت الوصايا إحدى الإجراءات المهمة في هذا الجانب ، فقد كان يوصي بعدم إكراه أحد على المسير إلى العدو ، ونجد

مصداق ذلك في وصيته لقائده عبد الله بن جحش حينما أرسله بسرية إلى نخلة إذ أوصاه أن لا يكره أحداً من المسلمين على المسير معه ، وأنما يكتفي بالراغبين منهم (٥).

ولعل هذه الوصية من اصدق مظاهر المقاربة بين ما وصل أليه الفكر العسكري للرسول صلى الله عليه وآله والمبادئ المعمول بها في الحروب الحديثة ، إذ أن عدم إكراه المقاتلين يعد من أساسيات مبادئ الحرب اليوم ، أما فيما يتعلق بخلفيات هذه الوصية وظروفها فلا شك أن الرسول صلى الله عليه وآله كان يدرك أن المسلمين لم يدخلوا لحد هذه الفترة بمواجهة عسكرية مع قريش وبالتالي ربما لم يكونوا مؤهلين بشكل كامل لخوض مثل هذه المواجهة لا سيما وان الرسول صلى الله عليه وآله جديد العهد بهم ولم يضعهم على المحك ، فكانت وصيته بعدم الإكراه تنطلق من هذا الباب أولاً ومن فكره العسكري الذي يرى بأن الاستعداد يمثل نصف النتيجة ثانياً .

ولم تقتصر الوصية الخاصة بمسير الجيش على المكونات التي يتكون منها هذا الجيش ، وأنما تعدى الأمر إلى المسلك والطريق الذي يجب أن يتم اتخاذه لتحقيق النتائج المرجوة ، فقد أوصى جيشه في الحديبية أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض في طريق يخرج على ثنية المرار مهبط الحديبية في اسفل مكة .(٦)

ويبدو أن تفسير هذه الوصية واضح جداً لا سيما إذا ما عرفنا أمرين :

الأمر الأول : أن الرسول صلى الله عليه وآله قد أتى بأصحابه لأداء العمرة وليس للقتال .

الأمر الثاني : أن هذا الطريق يبعد المسلمون عن الطريق المقابل لقريش ، وهو ليس طريقاً مباشراً وأنما طريق صعب لا يستخدم الاّ لهدف معين .

وإذا ما ربطنا هذين الأمرين أمكننا القول أن الرسول صلى الله عليه وآله قد غيّر مسار جيشه لتجنب الاصطدام مع قريش ، ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وآله (لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم الاّ أعطيتهم إياها)(٧) .

وحينما نريد أن نستوضح الأمر أكثر فأكثر عن وصايا الرسول صلى الله عليه وآله بالمسير فأن وصيته لأسامة بن زيد عندما وجهه لمؤته خير ما يوضح هذا الأمر إذ اتصفت هذه الوصية بعدة صفات :

١- شمولها على مبادئ عسكرية كثيرة أثبت العصر الحديث صحتها .

٢- وظفت هذه الوصية العقلية القيادية للرسول صلى الله عليه وآله في خدمة القائد المباشر للجيش، اذ نظر الرسول صلى الله عليه وآله للجيش من مختلف الجهات ، وبالجزئيات المتعددة التي تكفل معالجة أي طارئ .

٣- حلت هذه الوصيةمحل الاتصالات المستمرة بين قائد الجيش والقائد العام وذلك بالخطوط العريضة التي كانت ترسمها.

٤- قسمت هذه الوصية الجيش إلى عدة أقسام كلاً حسب وظيفته في مرحلة من مراحل المعركة كما هو التقسيم في الوقت الحاضر .

وقد قال الرسول صلى الله عليه وآله في هذه الوصية (يا أسامة سّر على أسم الله وبركته ، حتى تنتهي إلى مقتل أبيك ، فاوطئهم الخيل ، فقد وليتك على هذا الجيش ، فاغر صباحاً على أهل (أبنى) واصرف عليهم ، واسرع السير تسبق الخبر ، فأن ظفرك الله فاقلل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء ، وقدم العيون أمامك والطلائع)(٨).

وحتى يمكن تحليل هذه الوصية يجب أن نقسمها إلى مواضيعها التي أصبحت تشكل مبادئ حرب معروفة وهي كما يلي :

١- تسمية القائد المؤمن بالعقيدة والمبدأ الذي يدافع من أجلهما ، والحرص على أيجاد دوافع أخرى شخصية فيه،إذ وجد الرسول (ص) دافع جديد في هذا القائد وهو دافع الثأر لأبيه مما يزيد من اندفاعه في تحقيق الهدف المطلوب .

٢- تحديد وقت الهجوم الأنسب حسب التقديرات العسكرية التي رآها الرسول صلى الله عليه وآله وهو وقت الصباح ، لكي يضمن القائد عدم استعداد العدو لمواجهته ، إذ أشارت الوصية إلى طريقة الانقضاض على العدو بدون سابق إنذار.

٣- ضمت الوصية التأكيد على السّرية في المسير إلى العدو لضمان سلامة الجيش كما سيمّر .

٤- أشار الرسول صلى الله عليه وآله إلى الإجراءات التي يجب أن يتخذها القائد بعد تحقيق النصر وهي أن ينسحب مباشرة من مناطق العدو ، حتى لا يتمكنوا من الحصول على الإمدادات من مناطق أخرى .

٥- التأكيد على مسألة استصحاب الأدلاء حتى لا يتجاوز الجيش الطريق الصحيح الذي رسم له ، ولضمان سلوك الطريق الذي لا يتسبب في مواجهة مبكرة غير مخطط لها مع العدو .

٦- أوصى الرسول صلى الله عليه وآله قائده بأن يقدم العيون أمامه لجلب الأخبار أولاً" بأول عن استعدادات العدو وأماكن تواجده ، وهذا ما سنجد فيه تفصيل اكثر في موضوع لاحق .

٧- تقديم الطلائع أمام الجيش ككشافة ، وكمقدمة تليها المكونات الأخرى حتى لا تباغت قواتهم .

المبحث الثالث : السرية والكتمان

أنتهج الرسول صلى الله عليه وآله لكتمان الخبر ومراعاة السرية منهجاً" خاصاً" في المعارك ، وقد أخذ هذا المنهج بالتنوع والتفرد والتكيف مع الظروف ، إذ كان يوصي أصحابه بهذا الأمر في معاركهم ، ففي وصيته لقائد سرية نخلة والتي ضمت أكثر من مبدأ عسكري مَر أحدها في موضوع سابق ، نجد أنه صلى الله عليه واله ناوله رسالة وأمره بأن لا يفضها وينظر فيها إلاّ بعد أن يسير يومين .(٩)

وقد أراد الرسول صلى الله عليه واله من وراء هذه الوصية ضمان عدم شيوع خبر السرية ووجهتها ، إذ أن اليومين كافية لابتعادهم عن المدينة ، ولعلنا حينما نعرف مضمون هذا الكتاب يتوضح لنا الأمر في سبب تأكيد الرسول صلى الله عليه واله على السرية ، فقد كان الكتاب أمراً" أستخباراتياً" الهدف من وراءه ترصد أخبار قريش ، وهذا يدل على أن الرسول صلى الله عليه واله يؤكد على أن استطلاع أخبار المقابل يجب أن يحاط بالسرية التامة لأمرين :

الأمر الأول : حتى لا يستعد العدو لمنع هؤلاء من الحصول على المعلومات المطلوبة ، وهذا ما لم يحصل لو كان الأمر محاطاً" بالسرية .

الأمر الثاني : الأضرار والخسائر التي قد تصيب المقاتلين في حال علم العدو بهم ، وما يرافق ذلك من فشل في المهمة .

أما عن سبب كتمان الرسول صلى الله عليه واله لذلك الأمر عمن يحيطون به فيبدو أنه يرجع إلى أمور :

١- ربما يبوح البعض بالخبر بحسن نية ، لا يريد بذلك الشر بأصحابه ، ولا يفهم مقدار الخطر الذي قد يتسبب به .

٢- ليس ببعيد أن يكون منهم جاسوس من قبل قريش وضع لمثل هذه الأمور حتى يتجنبوا حملات الجيش الإسلامي ، ولا يبعد أن يكون فيهم ضعيف النفس يفشي السر بتأثير مال أو ضغط أو ما شابه .(١٠)

وأمثلة وصية الرسول صلى الله عليه واله هذه كثيرة فيمن جاءوا بعده أو بالأحرى في العصر الحديث والمعاصر ، فأن كثيراً من قواد الجيوش والحملات المرسلة للغزو كانوا يخفون أسرار حملاتهم عن جميع مرؤسيهم الاّ عن هيئاتهم الخاصة القليلة العدد ، وهي هيأة أركان الحرب التي تقتضي ضرورة وضع الخطط وترتيب العمليات أن يكونوا على علم بها . ومن أمثلة ذلك ما حدث في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ -١٩١٨ من أن الحملة الحربية التي أرسلت بحراً من الهند لغزو العراق لم يعرف رجالها وجهتهم الاّ في عرض البحر وكان ذلك بقصد إخفاء نبأ هذه الحملة . وقد حدث مثل هذا في الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ ، ويتفق في أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعاً على السر في حين يجهله جميع رجاله حتى إذا بقي على الحركة المقصودة ساعات معدودات تصدر الأوامر صريحة تحمل المفاجأة وتدعوا إلى الإسراع في العمل الواقع .[١١]

وعندما أرسل العباس بن عبد المطلب كتاباً إلى الرسول صلى الله عليه واله مضمونه أن قريش قد عزمت على المسير إليهم وكان ذلك يخص معركة أحد ، أوصى الرسول صلى الله عليه واله من قرأ الكتاب أن يستكتم هذا الخبر عن الناس .[١٢] ويبدو أنه صلى الله عليه واله كان يرمي من وراء ذلك إلى أمرين :

١- حتى لا يفت بأعضاد المسلمين ، ولا يحبط من معنوياتهم العالية بعد انتصار يوم بدر الاّ بعد أن يعالج المسألة .

٢- أراد أن يتأكد من هذا الخبر ومقدار مصداقيته ، حتى يتخذ الإجراءات الكفيلة لرده ، فلربما كان شائعة الهدف منها معرفة إمكانيات المسلمين ومدى استعدادهم النفسي والعسكري .

أما في غزوة مؤته بقيادة أسامة والتي مرّ علينا ذكرها فقد أوصاه الرسول صلى الله عليه واله قائلاً(أسرع السير تسبق الخبر)[١٣]ولعل الوصية ضمّت إلى جانبها السبب الذي دعا الرسول صلى الله عليه واله إلى أستيصاء أسامه ، ويمكن أن نلمس ذلك من جانبين :

الجانب الأول : مكافحة التجسس الذي قد يقوم به الأعداء ، وبالتالي فأن السرعة ربما تمنع من وصول الأخبار إلى عيون العدو وحتى في حالة وصولها فلا يملك العدو الوقت الكافي للاستعداد .

الجانب الثاني : أجراء احترازياً حتى لا يتعرض المسلمون إلى الخطر الذي قد ينجم من اكتشافهم والاستعداد لهم .

المبحث الرابع : ترصد العدو

لقد أخذت وصايا الرسول صلى الله عليه واله باستطلاع إمكانيات الجيش المقابل حيزاً واضحاً من وصاياه العسكرية بشكل عام ، اذ ربما نجده يبعث سرية كاملة ومستقلة لغرض الاستطلاع والترصد ، فسرية نخلة التي مَر ذكر بعض المبادئ عنها كانت في الأساس لترصد العدو ، وهو الأمر الذي علمه قائد السرية بعد أن فتح الكتاب المختوم ، وكان فيه (إذا نظرت في كتابي هذا أمض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم)[١٤].

وفي هذه الدورية حدث أن تورطت في قتال رجال قريش وغنمت الغنائم فلما عادت إلى الرسول صلى الله عليه واله أبدى عدم ارتياحه لما حدث وقال (ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم)[١٥]

وعلى ما يبدو فأن سبب عدم ارتياح الرسول صلى الله عليه واله من القتال في هذه السرية يعود إلى عدة أمور:

١- أنه أرسل هذه السرية لترصد قريش وتعلم أخبارهم،فقد كان الرسول صلى الله عليه واله يريدها دورية استطلاع لا قتال.

٢- حدوث القتال في الأشهر الحرم وهو الأمر الذي أراد الرسول صلى الله عليه واله أن يتجنبه مع قريش إذ أنها نفسها كانت تتجنب ذلك .

٣- كما مَر فيما سبق فأن الرسول صلى الله عليه واله لم يرغب في الاصطدام مع قريش في هذه الفترة الحساسة من تكوين دولته ، وانما أراد تكوين قوته والتأكد منها قبل ذلك .

ولا يكاد الأمر يقتصر على وصايا الرسول صلى الله عليه واله بالاستطلاع والترصد قبل المعارك بل تعدى ذلك إلى ترصد أحوال العدو بعد حدوث المعركة وتحديد جهة انطلاقهم أو وجهتهم ، وهذا ما حدث بعد معركة أحد كما سيأتي في موضوع لاحق عند الكلام عن تعقب العدو ، وصحيح أن هذا الكلام لا يهمنا كثيرا" في هذا المورد ، الاّ انه يمكن أن نستفيد منه من خلال ما احتواه من أفكار تتعلق بجانب كبير منها عن موضوع الترصد بشكل عام وأهدافه وشروطه ، فبعد انتهاء هذه المعركة أرسل الرسول صلى الله عليه واله الأمام علي عليه السلام وراء جيش المشركين وأمره أن يخرج في أثار القوم فينظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون ، فان كانوا قد احتبسوا الخيل وأمتطوا الإبل فأنهم يريدون مكة،وأن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة،ثم أمره بعد ذلك ان يخفي الخبر حتى يأتي.[١٦]وقد كان فكر الرسول صلى الله عليه واله العسكري يملي عليه أن يتصرف هذا التصرف وأن يوصي الأمام عليه السلام بمثل هذه الوصية ، والتي دلت على فهم لواقع المعارك وأساليب الانقضاض أو الكر والفر ، ويبدو أن سبب هذا الترصد أن الرسول صلى الله عليه واله ربما شعر بمحاولة المشركين استغلال الوضع ، والهجوم على المدينة في وقت كان المسلمون فيه بحال لا يحسدون عليها ، فأراد الرسول صلى الله عليه واله أن يتأكد من ذلك حتى يتأهب مع المسلمين لصدهم . لاّ أن ما يلفت النظر هو وصيته صلى الله عليه واله بإخفاء الخبر عن الناس حتى يصل أليه ، وعلى ما يظهر فأنه لم يرغب في التأثير على معنويات المسلمين لا سيما وأنه قد ركّز على أدامتها ، فقد قرر في اليوم الثاني بعد المعركة أن يستنفر المسلمين الذين شاركوا في المعركة بالأمس على ما فيهم من جراحات لمطاردة قريش برغم عدم نية الأخيرة بالرجوع للقتال كما أكد مبعوث الرسول صلى الله عليه واله وقد سميت هذه الغزوة بحمراء الأسد نسبة إلى منطقتها [١٧] ، والتي كان لها أكبر الأثر في نسيان آثار معركة أحد ، فصحيح أن هناك أهدافا" كثيرة لهذه الحركة التي قام بها الرسول صلى الله عليه واله من إرهاب قريش وتخويف اليهود في المدينة ، واشعار القبائل بقوة المسلمين ، الاّ انه يبدو أن الهدف الأساس كان يخص المسلمون أنفسهم وهو أن الرسول صلى الله عليه واله اراد بهذه الحركة ان يشعر المسلمون بأن معركة أحد ليست نهاية المطاف ، وأنما هي درس لهم ينبغي أن يتحملوا نتائجه ، وربما أن الرسول صلى الله عليه واله قد شعر فعلا" أن يوم أحد أضعف من معنويات المسلمين لهذا تحرك لعلاج هذه الحالة ، والتي عدّها نقطة مهمة في تكتيكات الجيش ، لا سيما وأن إجراءاته العديدة في رفع المعنويات تدل على ذلك .

المبحث الخامس : المبعوثون و الرسل

لم يترك الرسول صلى الله عليه واله أمر الرسل والتعامل معهم دون ضوابط تذكر ، وانما أوصى بحسن معاملة رسل العدو إذا أتوا بشأن صلح أو هدنة ، وأن يكونوا بمأمن حتى يعودوا إلى أقوامهم ، وهذا جزء من المبادئ الإنسانية التي جاء بها

الإسلام بغض النظر عن تصرفات المبعوث مع المسلمين[١٨] ، ونرى ذلك بشكل جلي حينما قدم أبو رافع بكتاب من قريش الى الرسول صلى الله عليه واله وأسلم ورغب في عدم العودة إلى قريش[١٩] ، ولكن الرسول صلى الله عليه واله قال له (أما أنني لا أخيس بالعهد ،ولا احنث بالرد ، ولكن أرجع فأن كان في قلبك الذي في قلبك الآن فأرجع)[٢٠].

وكأن الرسول صلى الله عليه واله قد بيّن في هذا الرّد الشروط والضوابط الواجب أتباعها في التعامل مع رسول العدو ، وابرز هذه الضوابط حماية هذا الرسول والتأكيد على سلامة خروجه إلى قومه أولا" ، وعدم رفع الحصانة عنه كرسول وذلك بضمان عودته على ما جاء عليه من مبدأ أو عقيدة وأن كانت هذه العقيدة باطلة ثانيا" ومن هنا نجد أن الرسول صلى الله عليه واله قد طلب منه إذا بقي على رغبته في الإسلام أن يعود في وقت أخر بغير صفة الرسول المبعوث .

ومن جانب آخر فأن الرسول صلى الله عليه واله وضع أيضا" ضوابط للرسل الذين يرسلهم بمهام معينة فكان يوصيهم بكيفية التعامل مع الأقوام المرسلين إليهم ، فحينما نقض بني النظير العهد أرسل الرسول صلى الله عليه واله محمد بن مسلمة إليهم وأوصاه قائلا" له (أذهب إلى يهود بني النظير وقل لهم أن رسول الله أرسلني إليكم أن أخرجوا من بلادي لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم ما هممتم به من الغدر بي ، لقد أجلتكم عشرا" ، فمن رؤي بعد ذلك ضربت عنقه)[٢١].

وهذه الوصية يغلب عليها طابع الترهيب ضد بني النظير إذ أن هذا الطابع هو الذي يتناسب مع جنس العمل الذي قاموا به ضد الإسلام ، ولكن مع ذلك نجده صلى الله عليه واله يوصي مبعوثه بأن يمهلهم عشرة أيام حتى يخرجوا من ديار المسلمين ، أما إذا لم يستجيبوا فسيكون القتل نصيبهم ، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن وصية الرسول صلى الله عليه واله كانت متضمنة لسبب هذا الأجراء وهو تذكير بني النظير بالعهد السابق وكيفية نقضهم إياه .

وفي بعض الأحيان نجد الرسول صلى الله عليه واله وحتى يضمن حرية نشر الدعوة الإسلامية تكون وصاياه خاصة لبعض الأقوام التي تمنع من أنتشار الإسلام ، وحرية انتقال أنصاره ، فحينما أرسل خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب بنجران أوصاه أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثا" فأن استجابوا له قبل منهم ، وأقام فيهم ، وعلمهم كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه واله ومعالم الإسلام ، وأن لم يستجيبوا قاتلهم[٢٢]، وقد بنيت هذه الوصية على عدة مراحل :

١- الدعوة إلى الإسلام لأكثر من مرة ، لضمان وصولها .

٢- المرحلة الثانية هي مرحلة الاستجابة ، والتي تتطلب القبول وبالتالي الكف عنهم .

٣- المرحلة الثالثة في حالة الأستجابه هي أقامة المسلمون مع المستجيبين وتعليمهم كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه واله واحكام الإسلام .

٤- المرحلة الأخيرة والتي يتم أتباعها في حالة عدم الأستجابه للإسلام وهي مقاتلتهم لما فعلوه ضد الدعوة الإسلامية ، إذ أن دعوتهم للإسلام ما هي الاّ عفوا" للكف عنهم .

الفصل الثاني

وصية المواجهة وستراتيجية الدفاع والهجوم

لقد أخذت وصايا الرسول صلى الله عليه واله خلال المعارك طابعا" آخر غير الطابع السابق ، إذ إنها خرجت من صفة الأجمال إلى التخصيص والتحديد في رسم الصورة أمام المقاتلين ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن مثل هذه الوصايا تخص

المعركة نفسها ، وإذا ما عرفنا أن مثل هذه المعارك كانت أمر واقع ، أمكننا تفسير سبب تأكيد الرسول صلى الله عليه واله على هذه المرحلة ، وحينما نطالع هذه الوصايا نجد أن هناك مرحلية ضمنية فيها ، فقد كانت وصايا الرسول صلى الله عليه واله تتناسب مع مراحل المعركة وسيرها منذ البداية إلى مرحلة أستحصال النتائج المتوخاة .

المبحث الأول : المبادءة بالقتال

أن الدراسة الدقيقة لوصايا الرسول صلى الله عليه واله خلال المعارك تطلعنا إنها كانت تدعوا إلى عدم البدء بالقتال ، إذ يمكننا من خلال دراسة المعارك التي ذكرت المصادر بداياتها أن نصل إلى نتيجة مفادها أنه لا توجد هناك معركة واحدة بدأ المسلمون فيها القتال وذلك بتوجيه من الرسول صلى الله عليه واله نفسه وأنما جميعها كان قد بدأها المشركون ، لأن الرسول صلى الله عليه واله كان يحرص على أن يستنفذ كل الإجراءات السلمية قبل الخوض في المعركة ، وهذا ما نفهمه من وصيته لأصحابه يوم بدر ، إذ قال لهم لما تصاف الفريقان للقتال (لا تقاتلوا حتى أوذنكم ، وأن كثبوكم فارموهم ، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم)[٢٣] .

وصحيح أن هذه الوصية هي خطة عسكرية ، الاّ أنها قد تكررت في باقي معارك المسلمين ، وحتى في أوضاع مختلفة من القتال ، والشيء المهم الذي نفهمه من ذلك هو عدم بدء المسلمين بالقتال حتى يبدأ العدو به ، فلا يبادر المسلمون بالقتال بناء" على هذه الوصية .وفي أحد أيضا" نجد الرسول صلى الله عليه واله يأمر المسلمين ان لا يبدءوا بالقتال طالما لم يأمرهم بذلك [٢٤] . وقد طبق المسلمون ما أراده الرسول صلى الله عليه واله في هذه الوصية لا سيما وأن هناك رواية تشير إلى أن أول من أنشب الحرب بين الطرفين في هذه الغزوة احد الشركين الذي خرج في خمسين من قومه ومعه عبيد قريش [٢٥] ، وكذا الحال في غزوة المريسيع[٢٦] ، وفي يوم خيبر وهو يواجه الحصون[٢٧].ولكن خير ما يوضح هذا الأمر وصية الرسول صلى الله عليه واله للأمام علي عليه السلام حينما أرسله في سرية إلى اليمن إذ قال له (إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلونك ، فأن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلا" ، فأن قتلوا منكم قتيلا" ، فلا تقاتلهم تلووهم (تنتظرهم) ترهم أناة)[٢٨] .

ويظهر من هذا النص أن الرسول صلى الله عليه واله قد قسم سياسته السلمية إلى مراحل ، فهو في وصيته للأمام علي عليه السلام كأنما يأمره بأن يدعوا القوم للسلم في المرحلة الأولى ، فأن رفضوا فلا يقاتلهم حتى وأن قاتلوه أي أنه يبدأ معهم بدعوة سلمية أخرى ، فأن رفضوا حتى وأن قتلوا منه ، فيدعوهم إلى مرحلة سلمية ثالثة ثم ينتظرهم بعد ذلك عسى أن يهتدوا للسلم .ونفس الأمر نجده في وصية الرسول صلى الله عليه واله لخالد بن الوليد سابقة الذكر حينما أرسله إلى نجران اذ جعل القتال آخر مرحلة في التعامل مع الأعداء[٢٩] ، وعند فتح مكة أمر الرسول صلى الله عليه واله أصحابه وأوصاهم أن يدخلوا مكة ، وأن لا يقاتلوا الاّ منّ قاتلهم[٣٠] . وفي ضوء ما تقدم يمكن أن نسجل بعض الملاحظات التالية :

١- أن الرسول صلى الله عليه واله أتخذ من وصيته في عدم المبادءة في القتال كدعوة سلمية أخيرة للعدو .

٢- اندماج هذا الأسلوب بخطط الرسول صلى الله عليه واله العسكرية ، وجعله سلاح ذو حدين فهو علاوة على كونه دعوة سلمية ، فهو تركيز لقوة المسلمين ، وجعلها مجتمعة لصد الهجوم المحتمل .

٣- تقسيم أسلوب عدم المبادءة بالقتال إلى مراحل ، كما رأينا في وصية الرسول صلى الله عليه واله للإمام علي عليه السلام في سريته إلى اليمن ، وانفاية من ذلك سلمية وعسكرية أيضا" ، وذلك من خلال تجنب القتال في مكان بعيد عن المدينة ، والسعي للسلم حتى في مراحل متقدمة من المعركة ، وذلك خوفا" على المسلمين .

المبحث الثاني : تطبيق الخطط العسكرية

لقد عمل الرسول صلى الله عليه واله على تطبيق خططه العسكرية ، والتي تدل على قيادته الفذة لمعارك المسلمين ، فقد أستعمل الوصية كأساس في ضمان التطبيق الأمثل للخطط التي رسمها ، وكان يؤكد على ضرورة إيصال الفكرة إلى جنده من خلال طرحها بتلك الوصايا التي تنم عن فكر عسكري راقي ، ومما يؤكد ذلك وصيته لقائد الرماة عبدالله بن جبير يوم أحد ، وكان على رأس خمسين رجلا" على جبل أحد إذ قال له (أنضح الخيل عنّا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا أن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك)[٣١] ، وفي رواية قال لهم (أن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا ، حتى أرسل إليكم ، فأنّا لا نزال غالبين ما ثبتم) .[٣٢] وقد بنيت هذه الوصية على عدة مرتكزات:

١- تولي رماة الجبل رمي خيل العدو بهدف تجميد هذا السلاح الذي كان يحسب له ألف حساب آنذاك .

٢- تأمين ظهر المسلمين ، ومنع العدو الإتيان من الخلف للحيلولة دون محاصرتهم .

٣- عدم ترك هذا الموقع الستراتيجي حتى في حالة انتصار المسلمين ، وعلى ما يبدو فأن الرسول صلى الله عليه واله كان ينظر إلى هذا الأمر وهذه النقطة بالذات من وجوه مختلفة تنم عن بعد نظر قيادي كبير ويمكن أجمال هذه الوجوه بما يأتي :

الوجه الأول : ما يرافق انتهاء المعركة والنصر فيها من عمليات جمع الغنائم والتي يشترك بها أفراد الجيش المنتصر ، وهو الأمر الذي أراد الرسول صلى الله عليه واله التحذير منه بوصيته للرماة بعدم ترك موقعهم حتى في حالة النصر (جمع الغنائم) .

الوجه الثاني : قدرة الخيالة أو الفرسان على الكر والفر ، وتجميع قواهم من جديد حتى بعد الهزيمة ، وبالتالي فأن التصدي لخيالة العدو يجب أن يستمر حتى الانسحاب الكامل .

الوجه الثالث : كانت خطة الرسول صلى الله عليه واله في اختيار ساحة المعركة مبنية أساسا" على اختيار جبل أحد كدرع حامي للمسلمين لتعويض قلة عددهم بالنسبة للمشركين ، وبالتالي فأنه صلى الله عليه واله كان يعي تماما" الآثار الكبيرة التي قد تطرأ جراء سيطرة المشركين على هذا الجبل .

الوجه الرابع : خبرة جيش المشركين في هكذا عمليات ، ووجود قادة كبار يحسب لهم الميدان حسابا" كبيرا" ، هذا إذا ما علمنا أنهم مدفوعين بدافع ثأري قوي جدا" ، فليس من السهل أن يستسلموا للأمر الواقع أو للهزيمة .

ونستطيع أن نسمي الرسول صلى الله عليه واله القائد الغائب الحاضر ، إذ أن قيادته من خلال الوصايا العسكرية ومرحلية هذه الوصايا تكاد تستوعب كل الظروف التي يمر بها الجيش الإسلامي حتى في حالة غياب الرسول صلى الله عليه واله عن المعركة ، ولعل غزوة مؤتة سنة ٨هـ ووصيته بالقادة الثلاثة الذين أمر بقيادتهم للجيش حسب مراحل المعركة ، وضرورة اختيار الجيش لقائد أخر في حال استشهاد القادة الثلاثة[٣٣] هي خير مصداق على ذلك .

وعلى الرغم من بعد الرسول صلى الله عليه واله كقائد مباشر عن هذه المعركة ، الاّ أنه كان يقودها بهذه الوصية التي تخرج من كونها وصية عامة إلى وصية تفصيلية مواكبة للحدث وظروفه ، ووجه القيادة الفذة للرسول صلى الله عليه واله يأتي من صعوبة التحدي الذي يمر به الجيش في هكذا معارك بعيدة عن مركز الدولة ومركز الإمدادات ، وبالتالي فأن أي خلل في القيادة ينعكس كلياً على نتيجة المعركة ، وعلى ما يظهر فأن الوصية كانت تستند على عدة أمور :

١- التأكيد على تماسك الجيش وعدم أشغاله باختيار القادة ، وما يرافق ذلك من أمور ربما تنعكس بشكل سلبي على الوضع العام .

٢- أيمان المقاتلون باختيار الرسول صلى الله عليه واله لقادتهم وما يعنيه هذا الأمر من رفع للمعنويات التي كانوا بأمس الحاجة أليها في تلك الظروف .

٣- أيمان الرسول صلى الله عليه واله بقدرة القادة الذين أختارهم لهذه المهمة بالتتابع على إدامة تماسك الجيش ، وقيادته القيادة الصحيحة ، نتيجة لجملة مميزات فيهم ، الأمر الذي ربما يحول دون اختيارهم في حال ترك الرسول صلى الله عليه واله الوصية .

بقي علينا أن نشير إلى المبادئ العسكرية التي احتوتها هذه الوصية والتي يمكن أن ندرجها بما يلي :

١- التكيف مع ظروف المعركة ، واختيار القادة بشكل يلائم هذه الظروف من حيث صعوبة الطرق والإمدادات ، وقوة الجيش المقابل .

٢- التأكيد على اختيار القادة الذين يتمتعون بمقبولية كبيرة لدى المقاتلين لا سيما في حالة مثل غزوة مؤتة وبعد منطقتها عن المركز .

٣- ضرورة اجتماع المقاتلين على قيادة جديدة في حال استشهاد قياداتهم وعدم التفرد بالقرار حتى لا يؤدي ذلك إلى زعزعة هذه القيادة ، إذ قال الرسول صلى الله عليه واله في هذه الوصية حول القيادة البديلة (فليرتضي المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم)[٣٤].

المبحث الثالث : معاملة الأعداء

لقد أسقط الرسول صلى الله عليه واله بعض المفاهيم السابقة في الحرب، والتي تنص على جواز كل شيء فيها، فلا إنسانية ولا تصنيف بين المدني والعسكري أو بين الطفل والمرأة والشيخ واختلافهم عن المحاربين، فما جاء به الرسول صلى الله عليه واله يعد طفرة كبيرة في ميدان القتال ، وكانت اللبنة الأولى التي بنيت عليها القوانين العسكرية الحديثة ، لذلك فمرحلة المواجهة مع العدو كانت وصاياها تختلف عن المراحل السابقة ، إذ أصبحت تأخذ طابعاً جديداً يقوم على عدة مراحل:

المرحلة الأولى : استيفاء جميع الإجراءات السلمية قبل البدء بالقتال وجعله الحل الأخير .

المرحلة الثانية : تقسيم العدو إلى فئات ، والاختصاص بالمقاتلين أو المحاربين ، وعدم التعرض للفئات الأخرى كالأطفال والنساء والشيوخ ، وحتى جرحى الحرب .

المرحلة الثالثة : الابتعاد عن كل ما يخدش قيم الإسلام والإنسانية والرجولة من غدر وغَل وما إلى ذلك وأن يحترم المقاتلين المبدأ الذي جاءوا من أجله ، وأن لا يتهاونوا فيه .

وربما نجد ترابطاً ملحوظاً بين ما ذكرناه عن المبادءة بالقتال وبين هذا الموضوع ، إذ أن هذا الموضوع لاحق لما سبق ومكمل له ، ولكنه مستقل من حيث كونه يمثل الإجراءات التي يجب أن يتخذها المسلمون عندما يصل الأمر إلى طريق مسدود ، ووصية الرسول صلى الله عليه واله إلى جيش مؤته سنة ٨هـ تدل على ذلك إذ قال لهم (أغزو باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين للناس ، فلا تعرضوا لهم ، وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيوف ، ولا تقتلن امرأة ولا صغيراً مرضعاً ، ولا كبيراً فانياً ، لا تفرقن نخلاً ، ولا تقطعن شجراً ، ولا تهدموا بيتاً)[٣٥].

وفي هذه الوصية حدد الرسول صلى الله عليه واله فئات الأعداء وكيفية التعامل مع كل فئة حسب استحقاقها وهي كالآتي:

١- رجال الدين المعتزلين للعبادة، وقد أوصى الرسول صلى الله عليه واله بعدم التعرض لهم، لكونهم لا يشكلون ضرراً ولأنهم يؤدون طقوسهم العبادية، وهذه الالتفاتة من الرسول صلى الله عليه واله هي التي تجسد حرية الأديان واحترام الإسلام لها .

٢- رجال تلبس الشيطان في نفوسهم ، وأخذوا يعيثون في الأرض فساداً ، ويمنعون انتشار الإسلام ، وهؤلاء يجب التصدي لهم وقتلهم لضمان حرية الأديان .

٣- النساء والشيوخ والأطفال، وهؤلاء لا ذنب لهم وليس عليهم جناح مما يفعله الصنف الثاني، لذلك أوصى الرسول صلى الله عليه واله بعدم التعرض لهم أيضاً .

٤- شملت وصيته إلى جانب الفئات التي ذكرها ضرورة احترام الطبيعة وعدم التعرض للنخيل أو قطع الأشجار أو حتى تهديم البيوت ، وهو عين ما جاء به الإسلام وجسده هذا القائد العظيم .

ومن استقراء سريع لما مَر نستنتج بان الرسول صلى الله عليه واله لم يأمر بقتال الاّ صنف واحد وهم العابثين بحريات الآخرين وحقوقهم ، المتصدين لمنع انتشار الدين الإسلامي ، أو الذين أخذ الشيطان منهم مأخذاً كبيراً فتجسد فيهم .

وفي غزوة مؤته الثانية نجد الوصية أكثر تفصيلاً ومرحلية من سابقتها ، اذ أوصاهم الرسول صلى الله عليه واله قائلاً (أغزو باسم الله ، فقاتلوا من كفر بالله ،لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فأدعهم إلى إحدى ثلاث فأيتهن ما أجابوك لها فاقبل منهم وأكف عنهم ، أدعهم إلى الدخول في الإسلام فأن فعلوا فاقبل منهم ، واكف عنهم ثم أدعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فان فعلوا فاخبرهم أن لهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، وأن دخلوا في الإسلام وأختاروا دارهم ، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله ولا يكون لهم في الفيء ولا في القسمة شيء ، الاّ أن يجاهدوا مع المسلمين فان أبوا ، فاستعن بالله وقاتلهم ، ، وأن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فانك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا ، وأن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله ، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة رسوله ، ولكن أجعل لهم ذمتك وذمة أبيك وذمة أصحابك ، فأنكم تخفروا ذممكم وذمم آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله)[٣٦].

ونجد في هذه الوصية تفصيلاً دقيقاً جداً لكيفية التعامل مع الأعداء أبتداءً من أول مرحلة إلى آخرها ، وبظروف مختلفة مستوعبة بذلك تقريباً كل الأسئلة التي ربما تطرأ على القائد الذي ينوب عن الرسول صلى الله عليه واله ، وهذا ما نفهمه من مضامين هذه الوصية :

١- الدعوة إلى السلام وعدم القتال .

٢- في حالة قبول السلام تأتي الدعوة إلى الإسلام .

٣- في حالة قبول الإسلام تأتي الدعوة بالهجرة إلى دار الإسلام .

٤- بيان حقوق وواجبات الداخلين في الإسلام ، المهاجرين إلى دار الهجرة .

٥- عدم إنزال المحاصرين على حكم وذمة الله ورسوله بل على حكم وذمة المسلمين .

٦- في حالة القتال وهو الحل الأخير يجب على المسلمين أن لا يغدروا ولا يقتلوا امرأة ولا وليداً ولا شيخاً .

وهذه المراحل التي وضعها الرسول صلى الله عليه واله أمام القيادة لا شك أنها تفتح الطريق للوصول إلى أفضل النتائج التي تنسجم بصورة أو بأخرى مع المبادئ التي دعا لها الإسلام الحنيف .

وحينما بعث الرسول صلى الله عليه واله عبد الرحمن بن عوف بسرية إلى دومة الجندل لبني كلب دعاه فأقعده بين يديه وعمّمه بيده وقال (أغزو باسم الله وفي سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله ! لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً)(٣٧)وهذا من جنس ما ذكرناه من وصايا الرسول صلى الله عليه واله في كيفية التعامل مع الأعداء ، وضرورة التأكيد على أخلاق القائد التي هي بالتالي الأخلاق الإسلامية التي دعا لها الرسول صلى الله عليه وآله .

الفصل الثالث

وصية أستحصال النتائج والتعامل معها

وتعد هذه المرحلة الأكثر وضوحاً أيما ذكرناه عن وصايا الرسول صلى الله عليه واله العسكرية ، وصحيح أنها تحصيل حاصل الاّ أنها مرحلة تكميلية يحتاجها القائد ليستكمل ما بدأه ، فلم يترك الرسول صلى الله عليه واله هذا الجزء المهم من دون أن يحدده بضوابط تنظمه وتحدد مساره الصحيح ، إذ أن وصايا الرسول صلى الله عليه واله العسكرية ليس فيها حلقة مفقودة ، وانما هي كل متكامل مترابط ، ومن هنا نجد الضوابط التي وضعها الرسول صلى الله عليه واله في وصاياه الخاصة بالفترة التي تلي المعارك أصبحت دستوراً يحتذى به لا من المسلمين فقط بل من كل الباحثين عن سير العظماء والأفذاذ .

المبحث الأول : معاملة الأسرى والتعامل مع القتلى

كان الرسول صلى الله عليه واله يحث على حسن معاملة الأسرى ، والاعتناء بالجرحى ، بل أنه أهتم حتى بقتلى الأعداء ، وحدد كيفية التعامل مع جثثهم بما يضمن احترام قدسية الإنسان ، ففي معركة بدر أوصى الرسول صلى الله عليه واله بنقل قتلى قريش من مكان المعركة إلى مكان متسع منخفض يسمى بالقليب ودفنهم فيه وأمر بعدم التمثيل بهم (٣٨).

وقد كان للتعامل مع الأسرى نصيب من وصايا الرسول صلى الله عليه واله فلم يترك الأمر سدى وأنما جعل أخلاق القائد هي السائدة في الميدان ، فعلى الرغم من جرم هؤلاء الأسرى وتصديهم للدعوة الإسلامية الاّ أنه صلى الله عليه واله لم ينل منهم ،

ومعركة بدر شاهدة على ذلك ، إذ قال صلى الله عليه واله لأصحابه بعد أن فرق بينهم الأسرى ليحرسوهم (استوصوا بالأسرى خيراً")[39].

ومن شدة حرص الرسول صلى الله عليه واله على حسن معاملة الأسرى كان دائم المراقبة والاهتمام بشأنهم للحيلولة دون أذيتهم ، ولعلنا حينما نطالع الرواية التالية يمكننا أن نتصور ذلك السمو ، وتلك الرفعة في أخلاق القيادة كما يريدها الإسلام ، فلما أستشهد أخو سعد بن معاذ في معركة أحد أوصى الرسول صلى الله عليه واله أصحابه قائلاً" لهم (لا تخبروا سعداً" بقتل أخيه فيقتل كل أسير في أيديكم)[40]، وهذه الوصية أن صحّت تتناغم وتسير جنباً" إلى جنب مع ما فعله الرسول صلى الله عليه واله فعلاً" مع الأسرى حينما أمر باطلاق سراحهم مقابل تعليم القراءة أو أسماعهم القرآن الكريم .[41]

المبحث الثاني : معاملة المنافقين وتعقب العدو

ليس هناك من شك أن الانتصار في المعارك يحتاج إلى الإدامة بأكثر من وسيلة ، ومنه التأكيد على العناصر التي ربما تقوض هذا الانتصار أو حاولت تقويضه للحيلولة دون نجاحها ، وكذلك ضرورة مراقبة الجيش المهزوم أو المتراجع والتحري عنه حتى ينتهي خطره ، وهذه الأمور هي التي أكد عليها الرسول صلى الله عليه واله في وصاياه العسكرية بعد نهاية المعركة .

فبخصوص العناصر المدسوسة والتي يمثلها المنافقون أو أنهم أبرز مصاديقها ، فقد عمل الرسول صلى الله عليه واله على تفكيك جبهتهم بما أمتلكه من حنكة قيادية ضمّنها وصاياه لأصحابه ، إذ كان صلى الله عليه واله يصر على حسن معاملتهم ، وهو الأمر الذي ينقل الكرة إلى مرماهم ، فبعد غزوة بني المصطلق التي فعل بها المنافقون ما فعلوا [42] أوصى الرسول صلى الله عليه واله أصحابه عندما أرادوا قتل عبدالله بن أبي قائلاً" (بل نرفق به ، ونحسن صحبته ما بقي معنا)[43] ، وفعلاً" بعد ذلك اليوم إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ، ويأخذونه ويعنفونه ويتوعدونه .[44] وهذه الوصية مبنية على أمرين :

١- حسن معاملة هذه العناصر والرفق بها .

٢- إدماجها بالمجموع وجعلها تشعر بالمسؤولية الجماعية .

وكان الرسول صلى الله عليه واله يهدف من هذه الوصية أمور :

١- تفكيك جبهتهم وتمزيق وحدتهم .

٢- بيان الخلق الإسلامي الرفيع في التعامل مع هكذا عناصر ، مع ما في ذلك من إمكان التأثير الإيجابي عليهم .

٣- الهدف الأساس هو إخراس المتقولين بان الرسول صلى الله عليه واله قد قتل أصحابه في حال أمر بذلك .

أما بشأن وصاياه العسكرية في مرحلة فرار جيش العدو المهزوم فتجسدها وصيته للأمام علي عليه السلام التي مّر ذكرها حينما أرسله في أثر المشركين بعد معركة أحد إذ أوصاه قائلاً"(أخرج في أثار القوم فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون ، فأن كانوا اجتنبوا الخيل وامتطوا الإبل فأنهم يريدون مكة ، وأن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة ، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم)[45] .

وقد أفصحت هذه الوصية عن الفهم الواقعي الحقيقي للرسول صلى الله عليه واله كقائد ، وبيّنت ملاحظته الدقيقة لتحركات العدو ومقاصدها ، كما أنها صورت لنا الروح المعنوية العالية لدى الرسول صلى الله عليه واله القائد العسكري ، والتي أراد

بهذا الكلام أن يزرعها في نفوس مقاتليه على الرغم من أحداث معركة أحد التي لم تكن لصالح المسلمين ، وأصبحت هذه المرحلة من مراحل المعركة ، بحق أساس في تعاملات الجيش الإسلامي فيما بعد .

الهوامش

١- غافر /١٠

٢- الواقدي ،المغازي ٥٨/١

٣- الواقدي ،المغازي ٥٨/١ ، الديار بكري ،تاريخ الخميس ٤٢١/١

٤- ابن هشام ، السيرة النبوية ٥٥/٣ ،ابن سعد ، الطبقات ٣٢/٢ ، الطبري ، التأريخ ٤٨٩/٢ ، ابن الاثير ، الكامل ١٤٤/٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٥/٤ .

٥- الواقدي ، المغازي ١/ ١٣ ، اليعقوبي ،التأريخ ٤٥/٢ ،اللواء عبد الحميد ، معركة بدر ص ٨ .

٦- ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/ ٣١٠ ، السهيلي ، الروض الأنف ٢٤٦/٤ ، محمود شيت خطاب، الرسول القائد ص٣٦٧ .

٧- الواقدي ، المغازي ٨٧/٢ ،ابن هشام ، السيرة النبوية ٣١٠/٢ .

٨- ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٦٥/٤ .

٩- الواقدي ، المغازي ١٣/١ ، ابن هشام ، السيرة النبوية ١٧٩/٢ ، اليعقوبي ، التأريخ ٤٥/٢ ، ابن الأثير ، اسد الغابة ١٩٥/٣ ،الكامل ١١٣/٢ ،الديار بكري ، تاريخ الخميس ٣٦٥/١ ، الحلبي ، السيرة الحلبية ٢٤/٤ ، المكي، سمط النجوم ١٠/٢ ، اللواء عبد الحميد ، معركة بدرص٨٠٧ ، احمد صالح العلي، الدولة في عهد الرسول ص٢١٧ .

١٠-اللواء عبد الحميد ، معركة بدر ص٨ .

١١- ينظر المصدر نفسه ص٧ .

١٢- الواقدي ، المغازي ٢٢٤/١ ، اليعقوبي ، التأريخ ٣١/٢ ، الديار بكري ، تاريخ الخميس ٤٢/١ ، الحلبي ، السيرة الحلبية ٢/ ٢٤ .

١٣- الواقدي ، المغازي ١١١٣/٣ ، السهيلي ، الروض الأنف ٢٤٦/٤ ، محمود شيت خطاب ، الرسول القائد ص٣٩٧.

١٤- الواقدي ، المغازي ١٣/١ ، ابن هشام ، السيرة النبوية ١٧٩/٢ ، اليعقوبي ، التأريخ ٤٥/٢ ، ابن الأثير ، أسد الغابة ١٩٥/٣ ، الديار بكري ، تاريخ الخميس ٣٦٥/١ ، الحلبي ، السيرة الحلبية ٤٧٤/١ ، المكي ، سمط النجوم ١٠/٢، محمود شيت خطاب ، الرسول القائد ص٧٧ ، اللواء عبد الحميد ، معركة بدر ص٨٥٧ ، رشيد الجميلي ، محاضرات في التاريخ الإسلامي ص٢١٧ .

١٥- ينظر الواقدي ، المغازي ١٣/١ ، ابن هشام ، السيرة النبوية ١٧٩/٢ ، اليعقوبي ، التأريخ ٤٥/٢ ، أبن الأثير ، أسد الغابة ١٩٥/٣ .

١٦- الواقدي ، المغازي ٢٩٨/١ ، الطبري ، التأريخ ٢٠٧/٢.

١٧- الواقدي ، المغازي ٣٣٤/١ ، ابن هشام ، السيرة النبوية ١٠١/٣ ، اليعقوبي ، التأريخ ٣٢/٢ ، الطبري ، التأريخ ٥٣٤/٢ .

١٨- الواقدي ، المغازي ٦١١/٢ ، ابن هشام ، السيرة النبوية ٣١٣/٣ ، اليعقوبي ، التأريخ ٣٦/٢، ابن الأثير الكامل ٢٠٣/٢ .

١٩- اللواء عبد الحميد ، معركة بدر ص٣٦ .(لم نعثر على الرواية في المصادر الأولية)

٢٠- المرجع نفسه والصفحة .

٢١- الواقدي ، المغازي ٣٦٦/١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٧٤/٢ ، محمود شيت خطاب ، الرسول القائد ص١٩٩.

٢٢- ابن هشام ، السيرة النبوية ٥٩٢/٢ ، محمود شيت خطاب ، الرسول القائد ص٣٣٦ .

٢٣- الواقدي ، المغازي ٦٧/١ .

٢٤- الواقدي ، المغازي ٢٢٠/١ ، ابن هشام ، السيرة النبوية ٦٥/٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٤/٤ .

٢٥- الواقدي ، المغازي ٢٢٢/١ .

٢٦- المصدر نفسه٤٠٧/١ .

٢٧- المصدر نفسه ٦٤٩/٢ .

٢٨- المصدر نفسه ١٠٧٩/٣ .

٢٩- ابن هشام، السيرة النبوية ٥٩٢/٢ ، محمود شيت خطاب ، الرسول القائد ص٣٩٥ .

٣٠- الواقدي، المغازي ٨٢٢/٢ ، ابن هشام ، السيرة النبوية ٤٠٩/٢.

٣١- الواقدي، المغازي ٢٢٤/١. الطبري، التاريخ ١٩٣/٢، السهيلي، الروض الأنف ٤٢٦/٢، ابن الأثير، اسد الغابة ١٩٤/٣، ابن كثير، البداية والنهاية ٢٤/٤ ، الديار بكري ، تاريخ الخميس ٤٢٣/١ ، المكي ، سمط النجوم ٨٣/٣ ، احمد صالح العلي ، الدولة في عهد الرسول ص٢٢٧ ، نظير حسّان ، الدولة العربية الإسلامية ص٥٧ .

٣٢- الواقدي ، المغازي ٢٢٤/١ ، ابن الأثير ، اسد الغابة ١٩٤/٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٤/٤ ، الديار بكري ، تأريخ الخميس ٤٢٣/١ .

٣٣- اليعقوبي، التأريخ ٤٢/٢، ابن الأثير، الكامل ٢٤٢/٢، ابن كثير، البداية والنهاية ٢٤١/٤، المكي، سمط النجوم ١٧٠/٢ .

٣٤- الواقدي ، المغازي ٢٢٤/١ ، اليعقوبي ، التأريخ ٤٢/٢ ، الطبري ، التأريخ ١٩٣/٢ ، ابن الأثير ، اسد الغابة ١٩٤/٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٤/٤ ، الديار بكري ، تاريخ الخميس ٤٢٣/١ .

٣٥- الواقدي ، المغازي ١١١٠/٣ ، محمود شيت خطاب ، الرسول القائد ص٩٦ .

٣٦- الواقدي ، المغازي ١١١٧/٣ .

٣٧- الواقدي ، المغازي ٥٦٠/٢ ، محمود شيت خطاب ، الرسول القائد ص٢٤٣ .

٣٨- الواقدي ، المغازي ١١٩/١ ، اللواء عبد الحميد ، معركة بدر ص٣٢ .

٣٩- الواقدي المغازي ١١٩/١ ، المكي ، سمط النجوم ٣٩/٢ ، اللواء عبد الحميد ، معركة بدر ص٢٢ .

٤٠- الواقدي ، المغازي ١٠٦/١ .

٤١- المصدر نفسه ١٢٧/١ .

٤٢- الواقدي ، المغازي ٤١٥/٢ ، اليعقوبي ، التأريخ ٣٥/٢ .

٤٣- ابن هشام ، السيرة النبوية ١٨٧/٣ ، الطبري ، التأريخ ٢٦٣/٢ .

٤٤- ابن هشام ، السيرة النبوية ١٨٧/٣ ، الطبري ، التاريخ ٢٦٣/٢ .

٤٥- الواقدي ، المغازي ٢٩٨/١ ، الطبري ، التاريخ ٢٠٧/٢ .

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

أبن الأثير ، عز الدين ابي الحسن ٦٣٠هـ - ١٢٣٢م

- أسد الغابة في معرفة الصحابة ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- الكامل في التأريخ ، بيروت ، ١٩٦٥ .

الجميلي ، رشيد/ محاضرات في التأريخ الإسلامي ، بغداد ، ١٩٦٩ .

الحلبي ، علي برهان الدين ١٠٤٤هـ - ١٦٣٥م / السيرة الحلبية ، القاهرة ، د.ت .

خطاب ، محمود شيت / الرسول القائد ، بغداد ، ١٩٦٤ .

الديار بكري ، الشيخ حسن بن محمد ٩٨٢هـ - ١٥٧٤م/ تأريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، بيروت ، د.ت .

أبن سعد ، محمد ٢٣٠هـ- ٨٤٤ م/ الطبقات الكبرى ، بيروت ، د.ت .

سعداوي ، نظير حسّان / الدولة العربية الأسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

السهيلي ، ابي القاسم عبد الرحمن ٥٨١هـ - ١١٨٥ م / الروض الأنف ، تحقيق طه عبد الرؤوف ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

الطبري ، محمد بن جرير ٣١٠هـ - ٩٢٢ م / تأريخ الرسل والملوك ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

عبد الحميد ، اللواء / معركة بدر ، سلسلة امجاد العرب ، القاهرة ، د.ت .

العلي ، احمد صالح / الدولة في عهد الرسول (ص) ، بغداد ، د.ت .

أبن كثير ، الحافظ أبي الفداء ٧٧٤هـ - ١٣٧٢ م / البداية والنهاية ، بيروت ، ١٩٦٦ .

المكي ، عبد الملك بن الحسين العصامي ١٠٤٩هـ - ١٦٣٩ م / سمط النجوم ، بيروت ، د.ت .

أبن هشام ، عبد الملك المعافري ٢١٨هـ - ٨٣٦ م / السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا واخرون ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

الواقدي ، عمر بن واقد ٢٠٧هـ - ٨٢٥ م / مغازي الرسول ، تحقيق مارسدن جونس ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

اليعقوبي ، أحمد بن اسحاق ٢٩٢هـ - ٩٠٤ م / التأريخ ، تعليق خليل المنصور ، قم ، ١٤٢٥هـ .